حرب الخليج وتأثيراتها المستقبلية في «القومية» والمصير العربي

د. ابراهيم ابراش

قال الجنرال العسكري والمنظّر البروسي، كارل فون كلاوزفيتش (١٧٨٠ ـ ١٨٣١) ان الحرب ظاهرة اجتماعية؛ بمعنى انها جزء من حياة المجتمعات عبر العصور؛ كما انها تقوم بوظيفة اجتماعية، حيث ان نتائجها على الاطراف المتحاربة، سواء أمنتصرة كانت او مهزومة، لا تخلو من ايجابية؛ ايجابية مباشرة بالنسبة الى المنتصرين وايجابية غير مباشرة بالنسبة الى المهزومين، حيث انها تحفز العقل الجمعي للأمة المهزومة على الاستقصاء والسؤال عن اسباب الهزيمة، وعن المسؤولين عنها، حتى تكون عبرة للمستقبل ولاعادة تأسيس المجتمع على أسس صحيحة، متحررة من اسباب وعوامل الهزيمة.

ان هذه الايجابية المرتبطة بالحروب تكون اكثر وضوحاً في الحروب العادلة والمشروعة، كالحرب من اجل الدفاع عن النفس، او حروب التحرر الوطني، حيث ان الهزيمة في معركة لا تعني تنازل الامّة المهزومة عن حقها، وعن عدالة قضيتها، بل تكون الهزيمة حافزاً وعاملاً على تجميع القوى، واعادة الحسابات، وتطوير وسائل النضال حتى يستعاد الحق. وممّا لا شك فيه ان النصر يكون اكثر احتمالاً، والقدرة على استيعاب الهزيمة وتجاوز آثارها يكونان ايسر منالاً، اذا أخذت الحرب طابعاً شعبياً، حيث يلتحم الشعب مع قيادته وجيشه. امّا الحروب التي تخوضها الانظمة دفاعاً عن مصالحها وعروشها، او خدمة لاهداف اجنبية، فان الشعب، غالباً، لا يشارك الانظمة فرحة النصر، ولا مرارة الهزيمة، ولا يكون لهزائم هذه الحروب ايجابيات، بل تكون هزائم مدمّرة للمجتمع.

ففي أي نوع يمكن ان نصنّف «حرب الخليج»؟ وما هي المرجعية في مشروعية كل طرف من أطراف الحرب؟ وهل الجماهير العربية في الدول المشاركة في الحرب ملتحمة مع قياداتها، وموافقة على دخولها الحرب؟ وبالتالي هل تشارك هذه الجماهير انظمتها في فرحة «النصر» بالنسبة الى المنتصرين، أو مرارة «الهزيمة» بالنسبة الى المهزومين؟

لا يختلف اثنان على ان السلطة السياسية تحتكر عملية اتخاذ القرار في العالم العربي، دون ان يكون للجماهير اي دور في هذه العملية، على الرغم من ان العديد من هذه الانظمة العربية تدّعي بأنها تنطق باسم الجماهير، وتجسّد ارادة الأمة، وتحكم باسمها.

ان القرار السياسي في العالم العربي يتمدد حتى يتغلغل في ثنايا نشاطات المجتمع كافة، فارضاً نفسه على كل مؤسساته، من ادناها اهمية، كتحديد سعر رغيف الخبز او ثمن تذكرة الحافلة او السينما، الى اخطرها واكثرها اهمية، كأمور الحرب ومصير الشعب. فالحقل السياسي، في المجتمعات العربية، يستوعب كل المجالات الاخرى، ويخصصها له. فالسلطة حاضرة دوماً، وفي كل